أنا والبحث عن معنى

ياسين طه حافظ

لا أدري كيف بدأت تشغلني هذه الفكرة. لم أكن معنياً بالمدن ولا بهندسة أو معمار البيوت. وفجأة رأيتني منشغلاً بالعمارات ذوات الطوابق و بيوت الطين والأكواخ الصفيح والصرائف. ربما دفعني لذلك اهتمامي بتاريخ العراق القديم وأنني كنت افكر بما أكتشف من مبان وأرى الأسس تخرج من التراب الى الفضاء وضوء الشمس مرة أخرى.

كيف كان سكَن الإنسان في العراق قبل خمسة آلاف سنة ؟ أعرف بعضاً من هذا. أعرف أكثر قصور الحكم والمعابد. أمام أسلافي الفقراء فما أكاد أعرفُ سكنهم. بيوت من طين صغيرة وكوى كنت أراها الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ومجيء ألوف الفلاحين الهاربين من الاقطاع وصعوبة العيش الى بغداد. تاهوا باسمالهم بين دروبها حتى وجدوا فسحاً خالية فوجدوا بها مستقراً وأن كان قلقاً وأنهم مهددون، يشعرون بأن الارض ليست لهم. كانت بيوت المدينة خليطاً بين بيوت من طين مهذبة قليلاً وبين أكواخ هي جملونات لكن جدرانها من طين، وبين بيوت صغيرة، كتل من طين بعضها فوق بعض لتكون حيطان ولا أقول جدران، هم يدوفون التراب بالماء ويناولونها شبه كرات لترصف واحدةً فوق أخرى. السقوف كان يخلط طينها الناعم بالتبن ليختمر ولكي لا يتشقق. هي بيوت الفلاحين الهاربين من الاقطاع والذين وجدوا ملاذاً في المدينة. إذاً أنا بهذا قريبٌ مما كان في العراق القديم، فيما يسمى "الحضارات" الأولى. تلك التجمعات الحضرية التي شهدها التاريخ. نعم انا أمام حيطان طين وكوى، دوائر صغيرة في الحائط للضوء وللتنفس كما لخروج الدخان. هم أحفاد أولئك ويحملون تراثهم. ولأن الحياة مستقرة والمواسم معروفة والناس فقراء، فقد ارتضوا بذلك ووجدوه بديلاً عن العراء. ولكننا في بغداد بعد الحرب العالمية الثانية وزمن التموين وعقابيل الحرب والبطالة وأولاء الحفاة الفقراء يترجون أن يجدوا خبزاً بعد أن وجدوا خلاصاً. تكوموا بتجمعات شبيهة بتلك التي كانت لأجدادهم في سالف العصور.

لكن في بغداد الجديدة كانت قصور من طابوق من طابقين في الوزيرية، والكرادة، كرادة مريم، والكاظمية، والاعظمية، وبعض الأثرياء رغبوا بجمال النهر أو بالعزلة فكانت لهم بيوت قصور على دجلة. وفي بغداد أيضاً ليست بعيدة عن هذه بيوت من لِبن وأعمدة خشب، لكنها حجر لا حجرة واحدة هذه المرة ولها خارطة : ممر وباحة حولها حجرات . هذا كان في أكثر مناطق بغداد، الفضل ، والاعظمية، وكرادة الكسرة، والكرخ من العطيفية الى ما يسمى اليوم بالعلاوي. وتقف المدينة بعد قليل عند حدودها فلا تتجاوز ما يسمى اليوم بالمسرح الوطني. وطبعاً يقابل هذا ناس افندية ببزات حديثة، بطرابيش أو سداير أو بلاهما وناس بملابس محلية ولكن جيدة ولها أناقتها، الجراوية والصاية والحزام العريض من جلد او من نسيج مشتد. وهنالك ايضا من هم بدشداشة بالكاد باقية وبغترة ما استساغت العقال وهي بهذا البؤس في المدينة. ونسوة بعباءات صوف عليهن الوشم في الوجه واليدين وربما في أماكن اخرى من اجسادهن.

في هذا الجو نجد أدباً قريباً من الحديث وقصائد وراءها مدارس وتجمعات علم في المساجد وتجد غناءً شعبياً من أرث المدينة، مقاماتها، وغناءً ريفياً قديماً جلبوه معهم من تلك الأعماق البعيدة. يتعاطف معهم وينقل أحزانهم في المتاهات الجديدة وهناك التي تبيع، تموت كدحاً لتعيش. وهناك بعيداً عنها وفي أحد الأزقة البغي التي مبكراً عرفت الحياة والتقفت المعنى !

ومثل هذه المفارقات في الطعام، فهناك مطاعم وناس محظوظون يختارون لحوماً وأطباقاً وفاكهة و ناس تعيش على الباقلاء والخضار قريب الشبه بالعشب، وربما بعض من الجبن اذا أُتيح وعلى الدبس والتمر المنقذ من جوع كما ذلك المنقذ من ضلال ... وناس يحملون باقات الفجل أو باقات من البصل الاخضر وسواهما مما تنبت الأرض مما يألفونه ومما قد يحنون الى أنواعه البرية الأكثر حدةً والتي لا تباع فهي على حافات الجدول أو تحت النخيل في الظلال.

هذا العالم يبدو منتظماً، يبدو له خارطة وتقسيم طبقي أو حضاري او ما شئت من اسماء، البؤس منها أقرب الجميع.

هذه الرؤية المختلطة التي شغلتني امتداداتها هذه الليلة أوقفتني أمام مسألة : كيف هي مسيرة المدينة العاصمة اليوم والى أين تتجه وقد اختلطت مستويات البيوت ومستويات العيش ومستويات الثقافة والتحضر ولا أحد يتحكم بها أو يوجد نظاماً؟ أيضاً من يتحكم بفوضى السوق وفوضى الأدب والكتابات وفوضى الصحف واختلاط مستوياتها والى أين؟ أيضا أي نظام، أية قوة يمكن بعد أن تسيطر على هذا الانفلات الأخلاقي الذي ما عاد يحكمه خوف الله أو خوف القانون أو خوف العشيرة؟ خوف الله قلَّ إذ قلَّ الإيمان والقانون بلا سلطة منفذة وهو رخو يمالئ ، فلا يخيف والعشيرة، الناس تفرقوا في المدينة وما عادوا في تجمعات يعرفوا واحدهم الآخر وأين يمضي ومتى يعود ..

هذا بسيط وقد يبدو كلام محترف يريد إشغال الناس بمسألة ما. لكن الذي قبض على جمجمتي وخضّني : أين في هذه الفوضى واللانظام والمجهول أجد المعنى؟ أنا الفرد الذي يستثيره الصوت والطريق والانعطافة والحجرة الخربة والمنارة التي تقف اقصر ، أذلّ ، أقل شأناً وهيبة من العمارة التي تعالت طوابقها عليها وكسرت نفوذها وسلطانها القديم ؟ فقراء نحن لا ندري ما نفعل فهذه البيانات العالية متعددة الطوابق لا علاقة حب بينها ولا علاقة جمالية وسكانها خليط. هي فوضى أخرى لتخريب العقل. يا أنا الذي ألف اليتم والغربة وخسران الكثير والذي بلا سند، من جاءني بهذه الأفكار فأدخلني معمعةً لا تحسم أمرها تعويذة ولا آية ولا صراخ بشر يضربون صدورهم بأقسى ما يستطيعون يريدون دفع ظلم قديم وحيف، يريدون حياة نظيفة وصواب وجود وهي غايات ستظل غائبة عصوراً أخرى، أخرى والى الابد!

هذا ليس تاريخ بلد هو تأريخي الشخصي ومتاهتي. هو تاريخ من يقرؤنني مكتئبين من تعب لا معنى له ومن عالمهم الغامض على الخارطة. سواءٍ أنشغل بماكنة عاطلة، أنا رحت أكتب أشعاراً وأكتب قصاصات وأنام لا أدري ما سيكون في العالم غداً. قد أستيقظ على أنقاض أيام مكومة في باب بيتي وأنا أدور في فراغ لا يؤدي الى خلاص أو مثوى. اقرأ صيحاتي الخرساء عتيقة معلقة على الحائط أمامي. وكل تلك الأحلام التي ولدت إجهاضاً، يابسة كأن من زمان. وكما غريق خارج من ظلام العصور أدبُّ في بيتي وأطل برأسي من باب موارب، لأقول لأطفالي صباح الخير، لكن بصوت مبحوح غير متأكد من وجود خير في مدينة التيه التي استدارت تنظر، كما تنتظر نداءً، للصحراء. ادارت وجهها عن العالم. إختنقت بصيحتي وأنا أقول "دعوا الأمل، أيها الداخلون هنا، فليس هنا إلا أن تموتوا ولا ترون ما أتيتم من أجله .."

قناديل

■ لطفية الدليمي

بوّابُ عمارةٍ إسمه فيتغنشتاين

تثير سيرة حياة الفيلسوف النمساوي الأشهر (لودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Wittgenstein) الكثير من العجب والدهشة، ليس لكونه أحد أعمدة الفلسفة في القرن العشرين بعد أن أنجز في كتاباته الفلسفية القليلة ثورة فلسفية في ميدان اللغة والفكر وحدود التفكير البشري إلى حدّ دفع الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) ليقول عن فتغنشتاين بأنه (أعظم فيلسوف حيّ قابله في حياته) ؛ إنّما يكمن العجب في تفاصيل صغيرة في حياة الرجل الذي كانت حياته أقرب إلى لوحة غرائبية حافلة بالعجائب والفنتازيات التي تعدّ جنوناً مطبقاً بالنسبة لآخرين إعتادوا الحياة الراكدة والسكونية والاستسلام لمتطلبات العيش التقليدية.

نتفحص سيرة هذا النمساوي المتمرد الذي وُلِدَ في فينّا عام ١٨٨٩ لأسرة بالغة الثراء، وتوفّى في بريطانيا عام ١٩٥١ وتنوعت أعماله بين مجالات : المنطق، فلسفة الريّاضيّات، فلسفة العقل، الفلسفة اللّغويّة، درس هندسة الطائرات في جامعة مانشستر أولاً ثمّ إنتقل لدراسة الفلسفة في جامعة كامبردج الّتي صار أستاذاً فيها حتّى إستقال عام ١٩٤٧ ليتفرغ لكتابة أعماله في عزلة ريفيّة تامّة على السّاحل الغربيّ لإيرلندا. ومن غرائب حياته أنه مارس الكثير من الأعمال المختلفة ؛ فقد عمل بوّاباً، و بستانيا في حديقة أحد الأديرة، ومهندساً معماريّاً بارعاً صمّم منزلاً لأخته أعتُبِر تحفة معماريّة، كما مارس التعليم في إحدى القرى النمساويّة إلى جانب عمله ممرّضاً في بريطانيا خلال الحرب العالميّة الثّانية).

لو تأملنا في هذه السيرة الموجزة لرأيناها أقرب إلى لوحة بانورامية تعجّ بشتى الفعاليات والأهواء المتناقضة : فلسفة وفنّ وعلم وهندسة وتمريض وعمارة ومنطق وتعليم ورياضيات وكتابة،،، الخ ؛ لكني سأشير لتفصيل صغير واحد أراه عظيم الدلالة في حياة فيتغنشتاين ؛ فقد تخلّى طواعية عن إرثه الضخم من تركة أبيه (الذي كان قطب صناعة الفولاذ في أوروبا) وتنازل عنه تنازلاً نهائياً لأخته الكبرى، ثم راح يعمل بوّاباً في عمارة !!.

لطالما إستوقفتني هذه الواقعة ورأيتني أطيلُ التأمل فيها وأقلّب الأمر من وجوه عدّة : ماالذي دفع فيتغنشتاين ليفعل هذا؟ هل هي رواقية متأصّلة في روحه؟ هل كان يشعر بالإشمئزاز من هذا العالم ولم يكن يطيق التعامل مع المال وبخاصة بعد أن رأى كيف يخضع الناس لجبروت المال ويستحيلون عبيداً أذلّاء أمام سطوته؟ هل كان سلوك فيتغنشتاين ينمّ عن إضطراب سايكولوجيّ وبخاصة أنّ ثلاثة من أخوته لجأوا للموت إنتحاراً رغم مواهبهم الثمينة وبخاصة في مجال العزف على البيانو؟ هل أراد فيتغنشتاين الثأر من سطوة المال فعمل على إذلاله (مثلما أذلّ المالُ الناسَ) عن طريق التبرّع به وتحطيم القيود التي تشدّه إليه؟

إنّ حقيقة الحياة التي عاشها فيتغنشتاين، والمعالم البانورامية التي إنطوت عليها تلك الحياة الغرائبية، إنّما تدفعنا للاقتناع بأنّ الرجل فعل هذا الأمر طلباً لنمط من أنماط (اللذة الرواقية) ونشداناً للسكينة التي هي بعض مفاعيل تلك اللذة في الروح البشرية النبيلة التي تدرك مسرّات تلك اللذة ومُكابداتها.

قد نتساءل كيف كانت صورة فيتغنشتاين ستتشكّل في أذهاننا لو قيّض له أن يواصل عمل أبيه في إدارة مصانع الفولاذ العملاقة؟ ومن يحبّه الناس أكثر من سواه : فيتغنشتاين الفيلسوف – البواب الذي تنازل عن ثروته كلها، أم فيتغنشتاين الصناعي الثري؟

ومن غرائب حياته أنه مارس الكثير من الأعمال المختلفة ؛ فقد عمل بوّاباً، و بستانيا في حديقة أحد الأديرة، ومهندساً معماريّاً بارعاً صمّم منزلاً لأخته أعتُبر تحفة معماريّة

نيكولاس كينيدي .. يبحث عما لايمكنهم امتلاكه

ترجمة : عدوية الهلالي

في السابعة من عمره ، يقع صبي نيويوركي في حب فتاة صغيرة حين تمنحه شبه ابتسامة قبل صعودها الى الحافلة ثم تختفي من حياته الى الابد ..هذه هي القصة الاولى من المجموعة القصصية التي اصدرها مؤخرا الكاتب الامريكي نيكولاس كينيدي وقام بيرنار كوهين ترجمتها الى اللغة الفرنسية ..

ولاتحدد هذه القصة كمثيلاتها الاخريات زمنا معينا كما انها تنتظر باستمرار مستقبلا غير محدد ..ففي جميع تلك القصص سنجد اشخاصا يقيمون حياتهم باحثين باستمرار عما لايمكنهم امتلاكه ورافضين ماهم عليه ، كما يبرز سؤال مأساوي باستمرار يصدر من اعماق الشخصيات عما يرغبون بفعله حقا والى اين يريدون الذهاب ؟.

في قصص دولغاس نجد دائما شخصيات تمتلك كل المؤهلات التي تحقق لها السعادة كالوظيفة الجيدة والمال والحياة الزوجية احيانا لكنها وبعد ان تحصل على الحياة التي تريدها يحاصرها شعور بالفراغ فيبدأ الضغط النفسي والخلافات الزوجية واللجوء الى العنف احيانا ..وتتراوح اعمار هذه الشخصيات بين ٤٠-٦٠ عاما واغلبهم يحاول اعادة تشكيل حياته بعد فترة قصيرة من وقوعهم في قصص حب جديدة حيث تسود النشوة والشعور من جديد بان يكون المرء محبوبا وهذه المشاعر تطغي على كل شيء آخر رغم ان الشريك الجديد لايكون مثاليا بالضرورة كما يتصورون.

تحمل المجموعة القصصية عنوان (الهمس في اذان النساء) ويوحي هذا العنوان للقارئ بأنه سيكون امام قصص مغرقة في العاطفة لكن الكاتب يذر الرماد في العيون اذ نجد على العكس قصصا واقعية يلازمها سؤال ملح واحد : " الى اين نحن ذاهبون ؟"

ففي احدى القصص يسأل سائق سيارة اجرة راكبا كان قد غادر عائلته وعمله توا : " الى اين تنوي الذهاب ؟" فيجيبه : " انه السؤال الذي اطرحه على نفسي طوال حياتي !!" ...ومن قصة الى اخرى ومن جيل الى جيل ينتقل الشعور بالضيق والملل والحيرة ..اما القصة الاخيرة التي تحمل عنوان(قصة عيد الميلاد) فتختلف الى حد ما بتقديمها قصة امراة يهجرها زوجها لكنها لاتكتفي بالتساؤل بل تقول بنبرة امل : " مازال دائما هناك وقت لاعطاء معنى للحياة والشعور بها .."

ويعد الروائي دوغلاس كينيدي من اشهر الروائيين في الولايات المتحدة وقد ترجمت اعماله الى اكثر من اربعين لغة لكنه حقق شهرته الحقيقية في اوروبا وليس امريكا حيث لفظه الناشرون بعد انتقاده سياسة المحافظين واسلوب جورج بوش في التعامل.مع احداث الحادي عشر من ايلول ...واعتاد كينيدي على ممارسة طقوس معينة في الكتابة كالاستيقاظ في السادسة صباحا واحتساء الكثير من القهوة ثم كتابة ٥٠٠ كلمة يوميا فقط مستندا الى قاعدة روائية تقول ان على الروائي اتباع ثلاث قواعد اساسية في الكتابة ليصبح كاتبا جيدا منها كتابة ٥٠٠ كلمة في اليوم وهذا يعني ان بامكانه انجاز كتاب واحد كل عام ..ويشعر كينيدي بقلق دائم لكنه يعتبر الخوف والقلق مسألة مهمة بالنسبة للابداع فمن لايشعر بهما لايمكنه تقديم انجاز جيد.

كيف تصبح روحك قصيدة في أمسية واحدة

علاوي كاظم كشيش

أقيمت الاسبوع الماضي الأمسية الشعرية للشاعر عمار المسعودي، على أحدى قاعات كلية التربية . وهي بادرة طيبة وفيها من الانفتاح الكثير ،وهو أن تقوم مؤسسة اكاديمية بالاحتفاء بتجربة شاعر مختلف مثل عمار المسعودي.

عندما كنت أتجول في ممرات الجامعة قبل موعد الأمسية أنا وعمار المسعودي وحسين القاصد كانت تلوح لي صورة الاستاذ المرحوم محسن أطيمش ،وتلذذت بذكرياتي وأنا أراني أسرع للقائه ولقاء خالد علي مصطفى بملابسي العسكرية وقد قدمت توا بإجازة من أعماق الاهوار المشتعلة إبان حرب الثمانينيات.كانا يهتمان جدا بآخر قصيدة كتبتها ويحاوراني ويتناقشان بعد ضيافة كريمة ولطف بالغ منهما ترك أثراً كبيراً في القلب   قدم الامسية الدكتور أحمد الزبيدي،وقرأ عمارالمسعودي نصوصاً من مجاميعه الشعرية الأربع: (ساعة يلمع الماس،ما يتعطل من الاسئلة،يختفي في القرى، زارع بهجات).وقد حضر طلبة المرحلة الرابعة في قسم اللغة العربية وأساتذتهم الكرام هذه الأمسية.

لم تكن قصائد عمار المسعودي غريبة عليّ،فقد رافقت كثيراً منها في ولادتها وكتابتها وطباعتها،وقصائد عمار المسعودي ترضي غروري ومعاييري في القراءة،فأنا أحترم أي عمل أدبي يستدعيك لتقرأه مرات عدة،لا لشيء بل لتقرأه،بالضبط كما تفعل بنا مجموعة صاحب الشاهر الوحيدة (أيها الوطن الشاعري)،ففي الأمسية الشعرية عندما يتحول النص المكتوب الى منطوق ومن الشاعر ذاته،تتولد مؤثرات جديدة.إذ يصبح للنص زمن خاص به وتكتسب كلماته خاصية صوتية لم يمنحها لها الورق في المجموعة فضلاً عن إن قراءة الشاعر في الامسية تأتي مطعمة ببوح الشاعر المصاحب للكلمات أعني كيانه الانساني الذي يحضر كاملاً أمامك.

من أبسط مقومات تلقي النص في الأمسية الشعرية أن تجلس وكأنك تشهد ولادة جديدة،حدثاً غير عادي أبداً،فهناك شاعر أمامك يبذر عباراته في الزمان وفي قلبك،وهذا يحتاج الى تصفير كامل،أي أن تكون في درجة الصفر تماماً من كل تذكر ومقارنة ومقاربة نقدية،لأن الدور هو دور الذائقة التي تطالبك بحريتها وتجريدها من كل المحددات المسبقة.هذا هو الغرض من الأمسية وما تبقى فهو زيادات قد تكون دراسية أو منهجية أو إحالات تخضع لتاريخ النص أو الشاعر ولكنها بائنة عن الأمسية التي يقرأ فيها الشاعر نصوصه.

عمار المسعودي لم تنتج نصوصه النظريات النقدية التي أسرت كثيرين،وقد اخبرته قبل الأمسية ونحن نتحاور في حديقة الكلية أن كثيرا من كتابنا وشعرائنا يقرأون النظريات ويكتبون نصوصهم وأنت تقرأ قريتك وعالمها وتكتب لذلك لا أرى كلماتك إلا كائنات خضراء مما انتجته قريتك. فعمار شاعر يجيد ترويض الأشجار والكلمات ويجيد اللعب بالاثنتين.لذلك جاء كلامه الشعري وليس لغته حافلا بالحركة والانبثاقات الكثيرة لكائنات وأفكار ولدتها العبارات التي خرجت من المتوقع الى اللامتوقع.

وعمار المسعودي شاعر انطلق من قريته الصلامية في ناحية الحسينية في كربلاء وعاد اليها.مثل نصوصه ،فهي تنطلق الى قارئها لتعود بأشيائها الى تلك القرية الوادعة الخضراء.وهو كما قلت في مداخلتي قد قلب المعادلة الشائعة المعروفة عن الشاعر القروي الذي يلوح في خارطة شعرنا العربي مهزوما مصدوما من عالم المدينة ويعيش نوعا من القطيعة مع المدينة دائما.ولم أنس تعليقا طريفا للناقد طراد الكبيسي في كتابه شجر الغابة الحجري عن الشعراء المهزومين أمام بغداد وسموها غابة الاسمنت وكأنهم صدموا بعيشهم في مدينة نيويورك.انه تلميح آخر عن اجتلاب التجارب والنظريات.

في الأماسي الشعرية يتحول أغلب المتلقين الى نقاد،ويحولون الامسية من فضاء نقي للتلقي الى حلبة للنقد والجدل وعرض النظريات وتشتبك الامور بين ان تكون امسية او محاضرة لتضيق حدود التلقي.ويضيع الاحتفاء والاحتفال بالشاعر ونصوصه في تضاعيف طرح النظريات والآراء ووجهات النظر.

اللغة بنت الأدب،تولد في الاشتغال،وتحديدا في الاشتغال الشعري،الذي يحولها من موظفة سقيمة الى راقصة بالية .والكلام الشعري في نصوص عمار المسعودي ليس لغة فكل النصوص تكتب باللغة وتحديدا بلغتنا العربية. ولكن مثار الأمر ان لكل شاعر كلامه الشعري،مثلما أن لكل شخص كلامه واللغة واحدة،لهذا يبرع عمار المسعودي في كتابة اللامتوقع من جريان الكلام الشعري،وهو لا يميل الى الغرابة تماما بحيث يمنع كلامه الشعري من أن يكون هذيانا،ولا يميل الى تسطيح العبارة بحيث يمنع كلامه الشعري من أن يكون فجّا باردا متوقعا.انها اللعبة التي يتقنها هو وليس غيره فكلامه الشعري هو مضمار براعته.

من المجحف أن نتلقى النصوص ونستعد للانسحار بها على وفق تصنيفها،فالقصيدة مهما كان شكلها فهي لابد أن تمتلك نوعا من اللذعة الشعرية.وكم خذلت الأشكال بأنواعها قصائد كثيرة لأنها لم تنطلق من تجربة حقيقية وليس فيها نبض ولا كهرباء شعرية.